

المبررات الدينية لسقوط الأندلس في قصائد رثاء المدن الأندلسية

مريم بوخاوش

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة -

Résumé :

Après huit siècles entre essor et décadence, l'Andalousie a fini par disparaître et voir ses vestiges dissimulés. Si les historiens ont expliqué les causes d'une telle chute, les poètes d'antan ont donné leur version de ce qu'il s'est passé leur poésie élégiaque. Bien que la démarche soit la même, on retrouve à la lecture de leur poésie des interprétations religieuses, émanant d'une âme sincère imprégnée des valeurs de l'islam, de ce qui causa la perte de l'Andalousie. Ces valeurs qui remonte aux débuts de l'Islam jusqu'à la conquête des terres ibériques ont sculpté l'être de l'homme andalou.

الملخص:

لقد عاشت الأندلس ثمانية قرون كاملة بين التطور والذبول ، وآل ملكها في النهاية إلى زوال ، فدمرت حضارتها العربية الإسلامية ، وطمست معالمها ، ولئن كان للمؤرخين دور في تحليل ذلك السقوط ، فإن للشعراء الذين رثوها نظرتهم الخاصة في هذا التفسير ، وإن كان هناك أوجه تشابه عديدة بين المنهجين ، ولكن من خلال قراءتنا لأبياتهم تبين لنا تبرير سقوطها بمبررات دينية صادقة نابعة من روح إسلامية ارتسمت آثارها في نفسية الإنسان الأندلسي منذ الدعوة الإسلامية المبكرة التي جاء بها الفتح الإسلامي للمنطقة .

1 . مفهوم الرثاء :

1.1 . المفهوم اللغوي :

لقد تطرقت العديد من المعاجم اللغوية إلى تعريف فن الرثاء من حيث الأصل والاشتقاق ، ومن هؤلاء ابن منظور في معجمه " لسان العرب " إذ يعرفه بأنه من " رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية ، إذا بكاه بعد موته ، قال : فإن مدحه بعد قيل رثاه يرثيه ترثية ، ورثيت الميت رثيا وراء ومرثاة ،

ورثيته مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضا إذا بكيته ، وعددت محاسنه ، وكذلك إذا نظمت فيه شعرا " ¹.

وجاء في كتاب العين أيضا تعريف مشابه لتعريف ابن منظور قوله : " رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية أي يبكيه ويمدحه " ².

1. 2. المفهوم الاصطلاحي :

اقتصر الرثاء في أول الأمر على معناه اللغوي ، إلا أنه بعد مرور الزمن اتسع مجاله فإذا به ندب وتأبين وتعزية ، كما أنه نواح على المدن التي خربت .

أما الندب فهو البكاء على الميت وتعداد حسناته ، يبدي فيه الشاعر لوعته وحزنه ، وأما التأنيب فهو الثناء على الرجل ، وذكر فضله ، وتعداد محامده في الموت والحياة ، ولكنه يختص بذكر فضائل الميت ومحاسنه.

وأما التعزية فهي التفكير في رحلة الحياة ، ومصير الإنسان ، وحتمية القدر ، وضعف الإنسان ، والتماس الرضا والسلوان بما نزل والخضوع لإرادة الله ³.

فالرثاء إذن هم الثناء على الشخص بعد موته ، وتعداد مآثره ، والتعبير عن الفجيعة فيه شعرا ، ويقال على الوفاء فيقضي الشاعر بقوله حقوقا سلفت أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض ولده أو أهله أو من هم في منزلتهم من الأحباب والأصدقاء ⁴.

ويتعدى فن الرثاء عن بكاء الأموات من الملوك والأقارب إلى رثاء مدنهم التي غلب عليها أعداؤهم النصاري حتى صار فن رثاء المدن والممالك فنا قائما بذاته ، وتدور هذه المراثي حول رثاء الدول التي زالت من الوجود ، والمدن التي سقطت بيد النصاري الإسبان أو التي تهدمت قصورها وعمائرهما بسبب الفتن التي توالى عليها ولهذا اللون الشعري اتجاهان :

- اتجاه يقف وسطا بين البكاء والاستنجد .

- واتجاه سلبي ذو نفس انهزامية .

إن المآسي التي أصابت الأندلس منذ بداية القرن الخامس الهجري بدءا بقرطبة ، وانتهاء بغرناطة ، أنتجت إرثا أدبيا وشعرا يمتلئ بالوطنية والانتماء ، فبكوا الأطلال وتحننوا للعودة ، ودعوا للجهاد ، واستنهضوا الهمم للقضاء على أمل الأعداء ، ورثاء الممالك فن أدبي من الآثار الأدبية التي وصلت إلينا من جراء انعكاس الحوادث التاريخية أو السياسية على الأدب ، ولعل ما يلفت نظرنا في هذا الفن اتجاهان :

الاتجاه الأول : هناك شعر قاله شعراء ملوك الطوائف الذين شهدوا انحلال تلك الدول وسقوط أولئك الأمراء وذويان سلطانهم ، فكان هؤلاء الشعراء يصفون ما حدث لأولئك الأشخاص ، ويصفون تبدل قصورهم من حال إلى حال ، وتغير الزمان عليهم ، وخروجهم من تلك البلاد في أوصاف مؤثرة ، ومعان رقيقة تشيع فيها العاطفة الرقيقة والحزن والأسى⁵ ، ومثال ذلك رثاء دولة بني عباد بعد سقوط إشبيلية على يد المرابطين، ونفي المعتمد إلى مدينة أغمات ، وقد أثرت هذه المأساة على نفسية الشعراء المواليين لهذه الدولة ومنهم ابن اللبانة الذي تفجع على دولة العباديين بقصيدته الشهيرة فيقول :

تبكي السماء بمزن رائج غادي على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي دكت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والربابات عليها اليانعات ذوت أنوارها قعدت في خفض أوهادي
عريسة دخلتها النائبات على أساود لهم فيها وآسادي⁶

وقد مزج الشاعر رثاءه هذا بالطبيعة ، فالسما والجمال والأرض تبكي على هذا الملك المغيب وهذه الدولة الزائلة ، فهي تبكي أنوار هذه المملكة التي كانت يوما قبله للكثيرين من الناس ، تبكي هذا الملك الذي كان نبراس أمل لدى الكثير من الأشخاص ، وتبكي هذا الصرح الذي تداعت أركانه ، وهدت قواعده ، تبكي وطننا قد أقفر من أهله بعد أن كان مليئا بهم . وفي التائية يكرر الشاعر نفس معانيه السابقة فهو يتحسر على بني عباد ، ويبكي مجدهم ، وينعى الدهر لتلونه فيقول :

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من منايها غايات
والدهر في صبغة الحبراء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
انفض يدك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كتمت سريرة العالم العلوي أغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها من لم تزل فوقه للعز رايات
رماه من حيث لم تستره سابغة دهر مصيباته نبل مصيبات
لهفي على آل عباد فإنهم أهلة ما لها في الأفق هالات⁷

الاتجاه الثاني :

وهو الأكثر والأغلب ، وهو ذلك الأدب الذي كتبه أصحابه بعد سقوط الممالك والمدن في أيدي أعداء الإسلام من الإسبان ، واتخذت الحروب بين العرب والمسلمين طابع الحدة والحماسة ، واصطبغت بلون ديني في كثير من جوانبها ، إذ لم يكتف العدو بالانتصار ، ولم يقنع بالتسليم أو

الاستسلام ، بل كان يكثر ناقضا للعهود والمواثيق ، عاملا على تجسيد المعالم المسيحية ، طامسا كل أثر ديني يمد بصلة للإسلام ، ويلحق هذا الاتجاه اتجاه آخر وإن كان قليلا ، وهو رثاء بعض المدن التي خربت بأسباب لا علاقة لها بالعدو كشعر أبي إسحاق الإيبيري في خراب البيرة⁸ .

وقد كثر شعر الرثاء في هذا الاتجاه ، فكلما سقطت مدينة من المدن الأندلسية في أيدي النصارى إلا وهب الشعراء في تصوير مشاهد سقوطها ، ونتائج ذلك الانهيار على الإنسان والعمارة والدين ، وقد كان للأثر الديني نصيب في ذلك التصوير خاصة فيما يتعلق بالمباني والمنشآت الدينية كالمساجد والمدارس التي حلت محلها الكنائس المسيحية ، فإلحلال المسيحية مكان الإسلام أثر في نفسية الشعراء ، وقد تجلت هذه الروح في الكثير من قصائدهم المرسومة في نزعة دينية ورثها الأندلسيون عن أجدادهم وآبائهم

2. الأسباب الدينية لسقوط الأندلس :

2.1. الغضب الإلهي

فسر العديد من الشعراء سقوط الأندلس بالغضب الإلهي الذي حل بديارهم نتيجة ذنوبهم وسوء سيرتهم " فعمق الإيمان لدى الإنسان الأندلسي يعيد أسباب سقوط وانهيار كيانه إلى نقص في هذا الإيمان ، وبذلك تكون الهزائم نوعا من العقاب يصبه الله فوق رؤوس المنحرفين ، هذا الغضب الإلهي سيصل إلى نهايته عند ابن إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي الذي حاول تصوير ما أصاب مواطنيه من كوارث بعد معركة العقاب* :

وقائلة أراك تطيل فكرا وكأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر في عقاب غدا سببا لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلى من كل باب⁹

وفي هذه الأبيات يرجع ابن الدباغ خسارة الأندلسيين في معركة العقاب إلى عقاب إلهي حل بهم ، وبذلك أرجع ما حل بديار الإسلام في الأندلس وتلك الفجيعة المؤلمة إلى الأثر الديني متشعبا بثقافة دينية راسخة جعلته يصف تلك الواقعة بأنه واقف أمام الحساب ، وأن الله تعالى غضب عليه ، وكان نتيجة ذلك السخط موقعة العقاب " وبانصراف الشاعر الأندلسي إلى التأمل الديني فإنه يحصل على النتيجة نفسها ، ولم ترد هذه المسلمات لأول مرة في الشعر الأندلسي بل هي تعميمات ترددت غير مرة في الشعر العربي ، ولم يكن التأمل مقبولا إلا عندما يدور حول غرض الهزيمة كقول الشاعر بعد أن تأمل نكبة طليطلة :

يزول الستر عن قوم إذا ما على العصيان أرخيت الستور

ولعل لفظة " العصيان " تعبر عن مدلولي الأخلاق والدين المشار إليهما ¹⁰ ، فالمعاصي والذنوب سبب من أسباب غضب الله الذي أدى بهم إلى زوال إحدى نعم الله ألا وهي الستر ، وقد سبق هذا البيت بأبيات " يرد على الذين جعلوا الهزيمة عقابا من الله على معاص ارتكبتها أهل طليطلة ، وإنكار منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه الشريعة ، وحجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، وأشد فسقا وفجورا ، فإذا ارتضينا هذا سببا فعلينا أن نتوقع نفس المصير ، وفي قولته هذه يستهدف أمرين : الدفاع عن قوم سقطوا في محنة الاحتلال ، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقريح والندم ، وتذكير الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهي إليه حالهم إذا وصلوا سيرتهم العابثة ، ومظالمهم وعصيانهم سرا وعلانية :

ندور كان للأيام فيهم بمهلكهم فقد وقت الندور
فإن قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير
فإن مثلهم وأشد منهم نجور وكيف يسلم من يجور
أنأمن أن يحل بنا انتقام وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام بلا اضطرار إليه فيسهل الأمر العسير ¹¹

وفي هذه الأبيات يبين الشاعر أهم العوامل المساعدة على وقوع العقوبة والغضب الإلهي ألا وهي الظلم والفسق والفجور وأكل الحرام دون ضرورة ، وكلها عوامل تفشت في بلاد الأندلس فكان نتيجتها السخط الإلهي الذي أدى إلى تسلط الاحتلال عليهم ، وزوال مدنهم ، " فالشاعر الفقيه كغيره من فقهاء عصره الذين يرون أن سقوط المدينة كان نتيجة طبيعية لاقتراف الذنوب والابتعاد عن المنهاج السليم يقول ابن العسال :

ولكن جرة في عقر دار كذلك يفعل الكلب العقور
يزول الستر عن قوم إذا ما على العصيان أرخيت الستور ¹²

ولما سقطت إشبيلية أذكت في نفوس الشعراء لوعة وحسرة وألما ، وقد فسر البعض منهم سقوطها نتيجة غضب الله لكثرة ذنوبهم ومعاصيهم التي ارتكبوها ، ومن أهم القصائد التي قيلت في رثاء إشبيلية قصيدة طويلة لأبي موسى ابن هارون يقول فيها :

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلا ولا ذمما
يا جنة زحزحتنا عن زخارفها ذنوبنا فلزمنا البث

والندما

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها أصغ لتسمع أمرا يورث الصمما
لما تفرقت الأهواء واضطربت نار البغاة فقامت للردى علما

ونوزع الأمر أهله وقام به من لم يجد قدما فيه ولا قدما
ثارت حفاظ للتثليث فابتدروا وأيقظوا من سنات الغفلة الهمما¹³

وفي هذه القصيدة يشخص الشاعر الداء ، ويذكر الأسباب التي أدت إلى انفراط عقد
الأندلس وضياعه ، ويعزو ذلك إلى نزعة دينية ، فيرى أن ما نزل بالأندلسيين من بلاء كان
بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، وما أضرموه بينهم من فتن ، فأنزل الله غضبه وسخطه عليهم
، وزحزحهم عن هذه الجنة عقابا لهم ، وهذه الفكرة تسيطر على أذهان الشعراء جميعا¹⁴ .
وممن نحو هذا المنحى في تفسير سقوط المدن الأندلسية نجد أبا المطرف ابن الأبار " أحد
أبناء بلنسية الذين قضوا فيها معظم حياتهم ، وقد عاصر محنتها ، واهتز لما أصابها ، فرثاها
بقصيدة مؤثرة ، يمزج فيها بين الرثاء والحنين ، فيتشوق إلى بلنسية التي أبعدته عنها صروف
الليالي وحكم الزمان بآلا يعود إليها مرة أخرى ، ويصف ما بقلبه من لوعة لفراقها ، وما ثوى
بأضلاعها من حرقة لما حل بها من أرزاء ، ويشير في تعليقه لسقوطها إلى فكرة الذنب التي
سبق أن أشار إليها ابن هارون في رثاء إشبيلية ، والتي أخرجتهم من جنة الخلد فيقول :

أمن بعد رزء في بلنسية ثوى بأضلاعنا كالنار مضمرة الوجد

يرجى أناس جنة من مصائب تطاعن فيهم بالمتقف الملد

وهل أذنب الآباء ذنب أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلد ؟¹⁵

وبهذا اقترن العقاب الإلهي بكثرة الذنوب والمعاصي في الكثير من الأبيات الشعرية في رثاء
المدن الأندلسية ، واعتبر الشعراء ذلك من أسباب سقوطها .

وقد ذهب إلى هذا الرأي أبو بكر ابن العربي وهو من أدباء إشبيلية و علمائها ومن رجال
القرن السادس الهجري يقول : " ولقد نزل بنا العدو قصمه الله تعالى سنة سبع وعشرين
 وخمسائة ، فجاس ديارنا ، وأسر جيرتنا ، وتوسط بلادنا وحدد الناس عدده فكان كثيرا
 فقلت للوالي: هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة ، ولتكن منكم إلى نصره الدين
 المستعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد ... فغلبت الذنوب
 ، ورخصت بالمعاصي القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى جاره ، وإن رأى
 المكيدة بجاره فإننا لله وإنا إليه راجعون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل " ¹⁶ .

ونستدل على هذه المقولة بأبيات لابن العسال ، والتي يوضح فيها أسباب المصيبة التي نزلت
 على القوم، جازما القول في أن كثرة المعاصي والإجهاار بها ، فأصبح الشر علانية ، والأشوار
 لا يختفون بشرهم ، وانعدم الصلاح ، وعم الرياء ، فكان لا بد أن ينصر الكافر ، ويهزم
 العاصي فيقول في أبيات من الحكمة والعظة :

لولا ذنوب المسلمين وإنهم ركبوا الكبائر ما لهن خفاء
 ما كان ينصر للنصارى فارس أبدا عليهم فالذنوب الداء
 فشرارها لا يخفون بشرهم وصالح منجلي الصلاح رياء¹⁷
 " والذنوب التي يهلك بها الله القرون ويعذب بها الأمم قسمان : معاندة الرسل والكفر بما
 جاءوا به ، وكفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحابة
 الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور .. فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، يقول الشاعر
 البسطي الأندلسي :

هذا جزاء مخالف مثلي أبي تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرباط كاتب ابن الأحمر :

سودت وجهك بالمعاصي فالتمس وجهها للقياء الله غير مسود¹⁸
 وبهذا نستخلص تجلي الروح الدينية في نفسية الشاعر الأندلسي ، الذي راح يفسر أسباب
 الهزيمة في تفشي أنواع الكبائر في بلاد الأندلس ، فالله عز وجل قد عذبهم وأخرجهم من تلك
 الجنة لمعاصيهم ، عقابا لهم ، وجزاء على سوء فعلتهم .

2.2. الدهر وتقلباته :

لقد كان التذمر من الدهر وقسوته والزمان وتقلباته جليا في أغلب قصائد رثاء المدن
 الأندلسية " وليست شكوى الدهر جديدة في الأدب العربي ، فقدima اشتكى منه شعراء
 الجاهلية والإسلام ، ووقفوا منه موقف العداء والصدام ، فالمعركة دائمة أزلية بينهما ،
 والإنسان هو المهزوم الوحيد فيها ، والخاسر الضعيف أمام بطش الزمن وجبروته ومفاجآته
 الكثيرة التي يحملها بين طياته ، والشعراء المرباطون والموحدون كانوا يقفون عند بصمات
 الدهر التي يتركها وراءه على الموجودات والإنسان " ، وقد وردت العديد من القصائد التي
 جعلت قلب الدهر من أسباب سقوط الأندلس ، فدوام الحال من المحال ، ومن أمثلة ذلك ما
 قاله ابن خفاجة في رثاء بلنسية إذ يقول :

فيا ليت شعري هل لدهري عطفة فتجمع أوطاري علي وأوطاني

ميادين أوطاري ومعهد لذتي ومنشأ تهيامي وملعب غزلاني

وبهذا استسلم الشاعر لغلبة الدهر وقسوته ، وتغييره ملامح حسن بلنسية " فلو قطر بلنسية
 نظر الله إليه وعاد بنوره عليه وما صنع الزمان بأهله لكنت تندبه وبكيه ، فلا تسأل عما في
 نفسي ، وعن نكدي وبأسي " ¹⁹ ، ومن الذين ألقوا لوهم على الدهر " المعتمد بن عباد فيصوب

لومه عليه لأنه أخذ منه كل شيء، وأنه كلما أعطى منع ، فكأنه يبين أن ساعات السرور به قليلة ، ونعمته تتحول إلى نقمة فيقول :

قبح الدهر فماذا صنع كلما أعطى نفسيا نزعا
قد هوى ظلما بمن عاداته أن ينادي كل من يهو ألعا²⁰

ويذهب ابن اللبانة إلى نفس ما ذهب إليه المعتمد بن عباد في رثائه لدولة بني عباد في إشبيلية مصورا في أبياته تقلب أحوال الدنيا وتلونها ، ويصف الدهر بأنه حرياء لا يدوم على لون واحد ، ولا يبقى على حال في تائيته المشهورة فيقول :

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من منأئيهن غايات
والدهر في صبغة الحرياء منغمس ألوان حالاته فيها استمالات
انفض يدك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا²¹

وبهذا صور الشاعر في أبياته حال الدنيا وتقلباتها في صور من الحكمة فالدهر حرياء يأخذ ألوانا مختلفة وأوجها متعددة ، وأوضاعا متقلبة ، فكأن انقلاب الحكم العبادي وضياعه يعود إلى تقلبات الدهر عليهم، فتحول ملكهم إلى خراب ، وعزهم إلى ذلة ، ثم يختمها بحكمة إيمانية يحث من خلالها الإنسان على الإيمان بزوال نعم الدنيا .
ومن المراثي السياسية التي فسرت سقوط المدن الأندلسية بغلبة أمر الدهر عليها وتقلباته المفاجئة ما قاله أحد الشعراء عند سقوط قرطبة :

ابك على قرطبة الزين فقد دهتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه ثم تقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللين
فانعكس الأمر فما أن ترى بها سرورا بين اثنين
فاغدو وودعها وسر سالما إن كنت أزمعت على البين²²

وفي رثاء دولة بني الأفطس يقف ابن عبدون متهجما على الدهر لأنه السبب في سقوط الأندلس ، ويبين في أبياته مرارة الفجيعة التي أتى بها ، ويبين فيها مكره وخداعه ، مشبها إياه بالحرب في صورة تمثيلية رائعة فيقول :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالة والبيض والسمر مثل البيض والسمر²³

وهذا إبراهيم العامري يرثي الأندلس متفجعا جاعلا حقد الزمن سبب سقوطها ، وأنه لا غالب عليه ولا مفر منه فيقول :

ألا مسعد منجز ذو فطن يبكي بدمع معين هتن
جزيرة أنلس حسرة لا غالب من حقود الزمن
ويندب أطلالها آسفا ويرثي من الشعر ما قد وهن²⁴

وفي وصف إبي البقاء الرندي لفجائع الدهر وتقلباته ، وأن كل الأحزان يسهل تجاوزها ، ولكن مصيبة الدين أعظم وأجل ، فلا تضاهيها مصيبة ، ولا يسهل نسيانها ، فيجعل نكبة الأندلس نتيجة من نتائج تلون الدهر ، وتبدل الزمان فيقول :

فجائع الدهر أنواع متنوعة وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان²⁵

وهكذا عبر الشعراء في مرثياتهم عن الدهر ودوره في تقلب حال الزمان عليهم ، فأصيبوا في دينهم وديناهم ، وإن كانت مصيبة الدين في نظرهم أعظم من مصيبة الدنيا .

2. 3. زوال نعم الدنيا :

إن المؤمن قصير التعلق بالدنيا ، لأنها في نظره محطة عبور للآخرة ، وأن زخرفتها وإن أبهجت الناظر فهي إلى زوال ، وقد انطبق ذلك على الشاعر الأندلسي في تفسيره لسقوط الأندلس ، فصورت قصائده مظاهر للزهد والتصوف ، والعزوف عن ملذات الدنيا ، معتبرا بأحداث التاريخ التي أثبت مرارا عدم ثبوت نعم الدنيا ، وأن ملكها لا يطول ، والعبرة في من غبر ، وبذلك " علا شأن التفجع حتى مرتبة التصوف ، فارتبطت بوجدان أهل الأندلس دار الدنيا والدار الحقيقية التي لا قوة لأحد في إخراجهم منها وهي دار الآخرة ، وهذا ما فكر فيه ابن العسال عندما رأى نفسه مجبرا على ترك طليطلة والارتحال عنها إلى غرناطة:

أنظر الدنيا فإن أب صرتها شيئا يدوم
ما أحد منها في أمان وإن يساعدك النعيم
وإذا أبصرتها من لك على كرة تهيم
فاسل عنها واطرحها وارتحل حيث تقيم²⁶

وهكذا اجتمع الزهد في الدنيا والتصوف في رثاء الدول والممالك ، إذ عللوا زوالها بزوال نعم الدنيا وحتمية فناؤها ، فتصوروا أن سقوط الأندلس حتمية إلهية لا بد من وقوعها ، وهذا ما يجلي روح التدين لدى الإنسان الأندلسي ، ورغم أهمية هذا الشعور في تفسير الأحداث التاريخية التي مرت بها الأندلس إلا أن له آثارا سلبية " حيث نمت وطأة الانهيارات ، راحت

تتجه الشخصية الأندلسية اتجاها غيبيا نحو الخرافات ، وتؤمن بالشعوذات حتى ذهبت تصوراتهم السلبية في بعض الأحيان إلى استعمال يوم القيامة على صورة كارثة طبيعية عامة تصيب الأرض ، فتكفي الأندلسيين شر القتال ، ففي عام 581هـ / 1184م راجت في الأندلس رسالة وصلتهم من الشرق فيها ذكر لنهاية العالم ، فلما أتت تلك الرسالة تغير لها قلوب كثير من الناس ، وظهر ذلك عليهم ، وجاء في تلك الرسالة شعر مشعوذ ساعد كثيرا على تخريب الروح المعنوية عند الأندلسيين :

كونوا على حذر بني وارتقبوا كواكب الخمس في الميزان تقترن
من بعد عام ثمانين القران يرى فلا تفرنكم الأشغال والمهن
فبعدها ستهب الريح عاصفة تبيد بعض بني الدنيا وما سكنوا
تحصنوا في كهوف في جبالكم شهرا إذا ما أتاكم ذاك الزمن
فليس ينجي الوري منها إذا ظهرت من الهلاك حصون الأرض والمدن²⁷

وقد كان لهذا التفسير أثر في زعزعة الروح المعنوية ، وإهباط لعزيمة الجهاد ، فكانت هذه الدعوات ذات أثر سلبي على نفسية الإنسان الأندلسي ، وهي صورة لتفشي الغفلة ، وموت الهم .

وقد آمن الرندي أيضا بزوال نعم الدنيا ، وعدم دوام نعيمها ، فرد سقوط المدن الأندلسية إلى قلب حال الدنيا ، ووصفها بالفانية في صورة من الحكم الواعظة فقال :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان²⁸

وقد استنتج تلك الحقائق من التاريخ ، معتبرا بمن كان قبلهم من الدول والملوك الذن لم يبق لهم أثر " ليستلهم منها العظة والعبرة ، فيشير إلى بعض أخبار الأمم الخالية ، ويتأسى بالملوك الغابرين ذوي الجاه والسلطان الذين دار عليهم الزمان ، وأدركهم قضاء الله الذي لا راد لقضائه ، فذهبوا واندثروا دون أن ينفعهم جاههم ، أو يغني عنهم سلطانهم شيئا ، وقضوا وكأنهم ما كانوا ، وصار ما كان لهم من ملك وجاه أشبه بحلم خاطف داعب خيال أحد النائمين فيقول :

أين الملوك ذووا التيجان من يمن وأين منهم أكايل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم وأيم ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملم ومن ملك كما حكما عن خيال الطيف وشان ²⁹
ويذهب ابن عبدون في قصيدته الرائية إلى نفس السبب ليفسر زوال الأندلس بزوال نعم الدنيا
، وأن هذا المصير يشبه مصير الدول التي سبقتها مستوحيا ذلك من محطات التاريخ فيقول :
كم دولة وليت بالنصر خدمتها لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدار وفلت غرب قاتله وكان غصبا على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحقت أختها طمسا وعاد على عاد وجهرهم منها ناقض المرر
بني المظفر والأيام ما برحت مراحل والورى منها على سفر ³⁰
وقد أدت هذه النظرة التأملية في تداول سقوط الدول والممالك عبر العصور التاريخية ، إلى
انتشار ظاهرة الزهد في الدنيا ، والعزوف عن ملذاتها ، والأمل في الآخرة التي لا يزول نعيمها
، ولا ينتهي المقام بها ، ولذلك " علا شأن التفجع حتى مرتبة التصوف ، فارتبطت بوجودان
أهل الأندلس دار الدنيا والدار الحقيقية التي لا قوة لأحد في إخراجهم منها وهي دار الآخرة ،
وهذا ما فكر فيه ابن العسال عندما رأى نفسه مجبرا على ترك طليطلة ، والارتحال عنها إلى
غرناطة فقال :

أنظر الدنيا فإن أب صرتها شيئا يدوم
ما عد منها في أمان وإن يساعذك النعيم
وإذ أبصرتها من لك على كره تهيم
فاسل عنها واطرحها وارتحل حيث تقيم ³¹

وذهب السمسير إلى نفس التفكير ، ضاربا في تعليقه أمثلة من الواقع ، مشبها حال الدنيا
بالسراب ، وما يشيد فيها من أبنية وقصور ودور وعمائر فهو خراب ، وأن حالها لا يعرف
الاستقرار ، ونعيمها إلى زوال فيقول زاهدا فيها :

جملة الدنيا ذهاب مثلما قالوا سراب
والذي فيها مشيد فخراب ويباب
وأرى الدهر بخيلا أبدا فيه اضطراب
سالب ما هو معط فالذي يعطي عذاب ³²

ونستنتج من كل ما تقدم أن الشاعر الأندلسي استسلم لحوادث التاريخ ، متأسيا بالممالك
الزائلة ، والعمائر القديمة المخربة ، معللا ذلك بأن نعم الدنيا لا تدوم ، وأن الله استخلفهم

فيها كما استخلف الذين من قبلهم ، ولذلك التمسنا الاتجاه الزهدي في العديد من قصائدهم البكاية ، بنفس متعلقة بالآخرة ، غير مبالية بالدنيا ونعيمها .

2. 4. ذل وهوان الحكام والمحكومين :

إن أعظم ما ابتليت به الأمة الإسلامية كان نتيجة بعدها عن الجهاد ، وانغماسها في الملذات والشهوات ، فكانت نتيجة سقوطها حتمية ومصيرية ، وما عرف عن الأندلسيين من ترف ، وحب للمال ، وتفاخر في التشييد والبناء لا يمكن وصفه ، فقد غلب عليهم الذل والهوان ، وتحولوا عن طابع المراقبة والخشونة ، فكثرت لذلك صرخات الشعراء ، وغضبهم عن المآل الذي وصلت إليه الأندلس ، وبعد حكامها عن معالجة القضية الوطنية ، فقنوعهم بالدنيا ، وقعودهم عن الجهاد ، وضعفهم وهوانهم مكنوا لعدوهم أن يتسلط عليهم ، فأراد الشاعر في مراثياته " أن يضع يده على ما يظنه هو موضع الداء ، في محاولة منه لوصف الدواء ، ومن أمثلة ذلك رثاء طليطلة :

نخور إذا دهينا بالرزايا وليس بمعجب بقر يخور
لقد ساءت بنا الأخبار حتى أمات المخبرين بها الخبير
لقد ذهب اليقين فلا يقين وغر القوم بالله الغرور
رضوا بالرق يالله ماذا رآه وما أشار به المشير³³

وفي رثاء أحد الشعراء لمدينة قرطبة التي سقطت بسبب الفتنة معللا ذلك بسبب ذل وهوان الحكام وسوء سيرتهم ، وابتعادهم عن الحزم في تدبير الأمور ، وذلم وهوانهم فيقول :

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ستعلمون معا عقبى البوار غدا
لكن سبل العمى أعمت بصائركم فألبستكم ثيابا للبلوى جددا
يا أمة هتكت مستور سوءتها ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا³⁴

وقد ذكر ابن العسال ذل حكام الأندلس ، وذل الناس الذين أعطوا الدنيا ، ورضوا بالخنوع للحاكم الأجنبي إما لفقر أو لحرص على رزق ، أو لاستهانة بأمور الدين فيقول :

تجاذبنا الأعادي باصطناع فينجذب المخول والفقير
فباق في الديانة تحت خزي تثبطه الشويهة والبعير
وآخر مارق هانت عليه مصائب دينه فله السعير³⁵

لقد عرف عن المجتمع الأندلسي عامة ، وحكامه على وجه الخصوص نوعا من الرفاهية في العيش لم يسبق له المجتمع الإسلامي من قبل ، وكان لتلك الحياة الرغيدة سبب في غفلة حكامها عن الرسالة الأهم في هذا الوجود ألا وهو الحفاظ على حمى الدين وديار المسلمين ،

وقد تجلت مظاهر الغفلة في الكثير من الأبيات الشعرية إذ " أرجع شاعر مجهول سقوط طليطلة إلى الغفلة التي سكنت نفوس الحكام الذين انصرفوا إلى التباري قي بناء القصور ، وعينا ألفونسو السادس تنظران بطمع إلى احتلالها ، لقد سمع المأمون بن ذنون صاحب طليطلة ذات ليلة وهو مع جواريه هذا الشعر الذي يقول :

أتبني بناء الخالدين وأما بقاؤك فيها لو علمت قليل

لقد كان في ظل الإراك كفاية لمن كل يوم يعتريه رحيل³⁶

ولقد برر الشعراء في مراثياتهم سقوط المدن الأندلسية بتقصير الحكام " ومن مظاهر التبرير ما جاء على لسان أبي الحسن ابن المجد في ملوك الطوائف ، وكان يوسف بن تاشفين قد قضى على دولتهم :

أرى الملوك أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقي ولا تذر

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا

وكيف يشعر من كفه قدح تحدو به ملهياه الناي والوتر³⁷

ولم يقتصر هذا الحكم على أمراء الأندلس وحكامها فحسب ، فليسوا وحدهم المسؤولون عن سقوط المدن الأندلسية ، إذ عمم الشعراء في مراثياتهم كل شرائح المجتمع حكاما و محكومين ، فكلهم يشتركون في وقوع هذا الداء ، ودليل ذلك " أن جماعة معادية هاجمت إحدى قرى بلنسية فخرج أبناؤها لملاقاة الجماعة المغيرة بشكل مستهتر من دون مبالاة فأوقع عدوهم بهم هزيمة دفعت الشاعر الطرسوني إلى تسجيل هذه السخرية بمواطنيه قائلا :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنهم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا³⁸

ومن مظاهر الفساد تفشي الظلم والفساد السياسية التي أدت إلى سيطرة الصليبيين على الأندلس ، وتمكنهم بها ، مما التجأ الكثير منهم إلى شكوة حالهم لله عز وجل ، ومعلوم أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، وبهذا فسر الشعراء بصدق مرد الهزيمة إلى تفشي هذه الظاهرة التي تعد من أكبر عوامل انقراض الملك ، " ففي سنة 512هـ اضطر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أن يبعث بكتاب إلى أهل المدينة يحضهم فيه على التآلف والوثام ، ودفع التضامن والتباغض بإبطال أعمال المفسدين ، وجمع كلمة المسلمين ، وجهد المجتهدين فقال الأعمى التطيلي أبياتا :

إلى الله أشكو الذي نحن فيه أسى لا ينهه منه الأسى

فشأ الظلم واغترأشيعه ولا مستغاث ولا مشتكى

وساد الطغام بتويهمهم وهل يفدح الرزء إلا كذا
وذا اليوم حملنا فادح خضعنا له وانتظرنا غدا
ونغطي على حكم صرف الزمان وبين الجوانح جمر الغضا³⁹

من خلال هذه القصائد الشعرية التي ذكرتها على سبيل التمثيل والاستشهاد لا الحصر تبين أن هناك تشابه شديد بين الشعراء في تصويرهم لملاحم النكبات الأندلسية ، وينبثق هذا التشابه من المصدر الأساسي الذي استقوا منه أفكارهم ، واستتاروا به طريقهم في رسم لوحة المصيبة ألا وهو "الإسلام" كدين وعقيدة ومنهج وحضارة ، فكان سقوط المدن الأندلسية في نظرهم جميعا سقوط لهذا الدين ، واستحوذ للكفر على دياره ، وظهور بذور الشرك والظلم والطغيان ، وبهذا بدأت تتجلى مظاهر الروح الدينية في تلك المراثيات الأندلسية على اختلاف شعرائها.

ومن خلال توحد المصدر وجدنا توافقا في تحليل أسباب المصيبة عند الشعراء الأندلسيين الذين فسروا سقوط الأندلس تفسيراً ميتافيزيقياً ، فحملوا أنفسهم مسؤولية انهزامهم لانغماسهم في اقتراف الذنوب ، وتفشي الرذيلة والترف والبذخ ، والعزوف عن الجهاد ، والرضى بالدنيا وملذاتها ، وأحيانا يجعل الشاعر من سقوطها نتيجة قدرة إلهية فيرجعه إلى القضاء والقدر ، فقد التمسنا من خلال استشهادنا بالعديد من الشواهد الشعرية تحميل الشعراء القدر مسؤولية الهزيمة ، وهكذا اجتمعت هذه العوامل كلها في نظرهم تحت عامل الدين .

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط : 1 ، د . ت ، ج : 14 ، ص : 303 .
- ² - الخليل ابن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، د . ط ، د . ت ، ج : 8 ، ص : 234 .
- ³ - شوقي ضيف ، الرثاء ، دار المعارف ، ط : 4 ، القاهرة ، د . ت ، ص : 14 .
- ⁴ - عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ص : 194 .
- ⁵ - محمد رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، المطبعة الجديدة ، د . ط ، دمشق : 1990م ، ص : 291 .
- ⁶ - يوسف عيد ، الشعر الأندلسي وصدى النكبات ، دار الفكر العربي ، ط : 1 ، بيروت : 2002م ، ص : 38 .

7. محمد مجيد السعيد ، الشعر في ظل بني عباد ، مطبعة النعمان ، ط : 1 ، 1972م ، ص : 183 . 184 .
8. محمد رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 293 .
- * العقاب بالأندلس موضع بين جيان وقلعة رباح ، وهي موقعة عظيمة هزم فيها المسلمون في منتصف صفر سنة 609هـ . ينظر : عبد المنعم الحميري ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تعليق : لافي بروفنسال ، دار الجيل ، بيروت ، ط : 2 ، 1988م ، ص : 145 .
9. محمد رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 25 .
10. يوسف عيد ، الشعر الأندلسي وصدى النكبات ، ص : 90 .
11. أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف ، ط : 3 ، القاهرة : 1987م ، ص : 230 .
12. سامية جباري ، الأدب والأخلاق في الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين ، دار قرطبة ، ط : 1 ، الجزائر : 2009م ، ص : 212 .
13. فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، ط : 1 ، الإسكندرية ، 2007م ، ص : 180 .
14. المرجع نفسه ، ص : 180 . 181 .
15. المرجع نفسه ، ص : 184 .
16. يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 26 .
17. رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 300 .
18. علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، مكتبة حسين العصرية ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ص : 285 ، وفيه مزيد تفسير عن المبررات الدينية لسقوط الأندلس .
19. إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشروق ، عمان : 2001م ، ص : 150 .
20. عبد الوهاب عزام ، المعتمد بن عباد ، دار المعارف ، ط : 2 ، القاهرة : 1976م ، ص : 65 .
21. محمد مجيد السعيد ، الشعر في ظل بني عباد ، مطبعة النعمان ، ط : 1 ، النجف الأشرف ، 1972م ، ص : 183 . 184 .
22. يوسف طویل ، مدخل إلى الأدب الأندلسي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، د . ط ، 1991م ، ص : 107 .
23. الطاهر أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف ، ط : 3 ، القاهرة ، 1987م ، ص : 246 .
24. فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي ، ص : 179 .
25. الطاهر أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية ، ص : 316 .
26. يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 25 .

-
- ²⁷ - المرجع نفسه ، ص : 26 .
- ²⁸ - الطاهر أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية ، ص : 315 .
- ²⁹ - يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 188 .
- ³⁰ - المرجع نفسه ، ص : 25 .
- ³¹ - المرجع نفسه ، ص : 25 .
- ³² - إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين ، دار الشروق ، عمان : 2001م ، ص : 105 .
- ³³ - رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 303 .
- ³⁴ - إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، دار الشروق ، د . ط ، عمان : 2001م ، ص : 127 .
- ³⁵ - إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص : 148 .
- ³⁶ - يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 27 .
- ³⁷ - المرجع نفسه ، ص : 27 .
- ³⁸ - المرجع نفسه ، ص : 27 .
- ³⁹ - محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص : 254 .